كتاب جديد لتوماس مان :

«دكتور فاوستس» (*)

للأســـتاذ عمر حليق

هذا الإنتاج الفني الرائع لأمير البلاغة الألمانية مقالة عن الحضارة الألمانية المعاصرة كتبها عقل يمثل هـذه الحضارة خير تمثيل ويستوحي فيها ألواناً من التحليل الفلسفي العميق لنواحي العظمة والضعف في العقلية الألمانية والخلق الألماني .

وأكبر الظن أن الشعب الألماني لن يقرأ هـذا الكتاب ، ولن يتأثر به كما يريده توماس مان أن يتأثر . فهؤلاء التيوتونيون الذين يملكون القول الفصل في حضارة أوروبا وسلام أوروبا وعظمة أوروبا مشغولون الآن بالجوع والحرمان والبلبلة السياسية والفكرية والسعي لإزالة هذا الحطام الذي تركته قنـــابل الأنجلوسكون وجحافل الروس في أزقة المدن وحقول الأرياف ، وفي الأنفس البشرية التي تحطمت معنوياتها في موجات متلاصقة من زوابع سياسية تعصف بهم تارة من موسكو وطوراً من العالم الجديد .

فكتاب مان الجديد أسطورة في تاريخ الأخلاق الألمانية وسجل لهذا الوضع المحزن الذي يكتنف الألمان من كل جهة فيسد عليهم منافذ الفكر والإبداع الفني مؤقتاً على الأقل .

وأكبر الظن كذلك أن الشعب الألماني لن ينتفع بالكتاب لأن مؤلفه اختار الوطن الأمريكي مقراً ، وكان قد استقر به في أوائل النازية لاختلافه معها على حـدود الدولة في حرية الفرد وتفكيره وما يؤمن به ويدعو إليه من مبادىء ، وما يفسر به شؤون العقل والحياة مما لا يجد في الفلسفة النازية مكاناً . وإذا صلح الحكم المطلق لتنظيم الفوضى السياسية والتفكك الاقتصادي في فترة من حياة أمة فإنه لا ينبغي مطلقاً أن يقيد الفكر كما يقيد الانتاج الصناعي ، ويحدد كما يحدد اتجاهات السياسة .

وفوق ذلك فإن توماس مان ظنين الولاء لوطنه . كان المحبون يعبرونه « وألمانيته » ينتظرونه ليعود فيشارك هذا الشعب النشيط مسؤوليته الجسيمة في فترة عويصة يحتاج فيها إلى رسالته الفنية كما تحتاج إلى رسالة « شاخت » الاقتصادية ، ولكن مان — ولعله بتأثير زوجته اليهودية — لم يعد لألمانيا بعد ، ويبدو أنه لن يعود ، وهو يقطن الآن على بعد دقائق من هوليود مدينة السينما .

على أن ولاء توماس السياسي لا يعرف حدوداً إقليمية كمعظم المثقفين الممتازين ، ولكن ولاءه الثقافي لا يزال ألمانياً ، فلا يكتب بغير الألمانية ، ولا يكتب إلا عن الألمانية ، ولا يجاري هؤلاء اللاجئين من كتاب أوروبا الوسطى — ومعظمهم يهود — في تهالكهم على الإندماج في الثقافة الأمريكية المزدهرة اندماجاً فيه كثير من النفاق ، وفيه كثير من « المادية » التي تفسد مقاييس الإعجاب الفني والإنتاج الفني .

هذا الكتاب الجديد دراسة للعلة الألمانية ، وتوماس مان حريص على أن لا يوصي بمعالجتها أو بإيجاد حل لها ، فإذا قرأته - وقراءته من أمتع القراءات في الأدب الغربي المعاصر — خرجت منه بشيء واحد ، وهو أن هذه العلة الألمانية حقيقة ثابتة ، لم تستمد وجودها من النازية ولكن من صميم الثقافة الألمانية والخلق القومي الألماني .

هو حوار بين توماس مان ونفسه ، وهو تحليل لهذا الانفعال العقلي الشديد الذي ألم بتوماس مان بعد أن شاهد المحنة تلم بالثقافة التي ولد فيها وأحبها وأنشد روائعها في قوة وإجادة . وهذا الحوار قصة بطلها فنان ألماني معاصر هو (أدريان ليفركون) Adrian Levrkoin) ، وهو مجدد موسيقي توفي في أوج المجد النازي عام ١٩٤٠ قصها على القارىء أستاذ في مدرسة ألمانية اختلف مع النازية حول فلسفة التربية فانزوى في الأرياف يكتب ويفكر ، فلا هو منقطع عن الحياة الألمانية — فإن له ولدين في الجيش — ولا هو قانع بالاتجاه الذي تسير فيه هذه الحياة الألمانية .

والظاهرة الخالدة التي تكرر في إنتاج توماس مان هو هذا التوازن في الوضعية ، والصراع العقلي الذي ينشأ عن هـذا التوازن — صراع الآمن في عزلته في الأرياف ، والفنـان الثائر على الوضع يحمـل على أكتافه عبء المعرفة ، الصراع بين

(*) الطبعة الأصلية بالألمانية نشرت في ستوكهولم بالسويد والترجمة الألمانية بدار Alfried Knopf New York

« الصحيح » و « المعتل » . خذ أي قصة من قصص توماس مان (جبل السحر) (يوسف وأخوته) يأسرك هذا الصراع ، إذ أنه سبيل إلى تحليل كلا الوضعين في اتزان العقل الألماني المدقق الذي جعل من قصص مان إنتاجاً فلسفياً بالإضافة إلى كونها روائع أدبية خالدة .

ولقد حبك توماس مان هـذه القصة في مهارة تنتزع منك الإعجاب .

فراوي القصة (الأستاذ المتقاعد) يعبد عبقرية بطل القصة أدريان ، وهذه العبادة ليست وليدة التقدير الحق لهذه العبقرية ، ولكن من قبيل عبادة الأبطال ، وهي ظاهرة متأصلة في العقلية الألمانية تعمد توماس مان إبرازها لأنها من الأسس الراسخة التي تدفع الألمان أن لا يسلكوا على نحو ما سلكوه مع هتلر ومع غير هتلر ممن تعاقبوا على الزعامة في التاريخ الألماني .

هذه العبادة هي مزيج من العقل والعاطفة ، وهي المسؤولة عن هذا الولاء الشديد ، هـذا التفاني في الطاعة والامتثال التي تتأصل في الخلق الألماني .

فأدريان فنان مترفع — يعلم مقدار عبقريته وينزع إلى الفاظة والشراسة بفضل هذا العلم ، وذلك لأنه تواق لأن يوفي هذه العبقرية الفنية حقها لا أن يجاري المعجبين .

وأدريان رجل يعيش في المجتمع ولكنه لا يتقيد به ؛ ذلك لأنه نذر نفسه لأن يخدم هـذه العبقرية وأن يوفي الفن حقه في الإنتاج والإبداع . فالقلق في نفس أدريان أن يحمل الإبداع إلى أبعد ما يستطيعه الخيال . وهذا الوضع الذي صاغ فيه توماس بطله أدريان هو وضع العقلية الألمانية التي تميل إلى العزلة عن المجتمع الإنساني لأنها مخمورة بهذا العمق الثقافي وهذه المهارة المادية ، ولأنها تود أن تستغل هذا العمق وهذه المهارة لأنها تعتقد بأن البروز والتجلي يستلزمان واجبات المضي قدماً في إعلاء هذا البروز وهذا التجلي .

ولك أن تفسر النداء الهتلري « ألمانيا فوق الجميع » بأنه خلاصة لهذا الاتجاه العقلي لدى الألمان صيغ في لغة شعبية .

استمع إلى أدريان يحدث صديقه المدرس (راوي القصة) عن حرب ألمانيا الأولى (١٩١٤) ويدافع عنها بأنها الوسيلة الوحيدة لألمانيا لأن تحقق ما هي خليقة به بحكم كيانها ومقوماتها العقلية والنفسانية والمادية :

« إن في قرار العالم مشكلة واحدة ، وهذه المشكلة هي العالم نفسه ، كيف يمكن للمرء أن ينفذ منه ؟ وكيف يخرج منها إلى الفضاء ؟ ما السبيل للمرء أن يشق الغشاء ويخرج إلى النور كالفراشة ؟ » .

والجواب عن كل هذا راسخ في عقل أدريان ومستمد منه . فلم يشأ توماس مان أن يصيغ الجواب في شيء أقل عنفاً من مرض الزهري الخبيث .

فأدريان على ترفعه وعمق ثقافته وعبقريته أحب عاهرة نقلت إليه المرض . كانت الشيطان يزين له الخروج من محنته فآمن بها وتمتع ووجد مخرجاً ولكن إلى حين — وبثمن باهظ . استمع إلى أدريان يقول :

« إننا لا نخلق من العدم شيئاً جديداً — فذلك من شأن الآخرين . إننا نفرج عن أنفسنا فقط ، ونطلق الحرية . إننا ندع الموج والشعور يطأ النفس والشكوك وسواها تذهب إلى الشيطان . فعليك أنت أن تمهد السبيل ، فاضرب في الأرض وشق الطريق إلى المستقبل فإذا الصبية يتبعونك ، فهم ليسوا بحاجة إلى جنون ليفعلوا ذلك ، فجنونك أنت كفاهم شر الجنون . فعلى جنونك يعيشون أصحاء ، وعلى اكتافهم تعيش أنت صحيحاً . أفهمت ؟ فإنك لن تشق لنفسك الطريق وسط صعاب الزمن ، بل إنك تشق الطريق وسط الزمن نفسه ... واحرص على أن تكون بربرياً . بربرياً مضاعفاً لأنك آت في أعقاب اللطفاء » .

هـذه محنة ألمانيا وسوادها مستمد من صميم القوى الألمانية نفسها .

وقصة توماس مان ليست على هذه البساطة ، فالحبكة الفنية فيها بارعة . وهذه المحنة ليست محنة النازية فإن مان يكاد يتجاهلها . فهي محنة العقلية الألمانية كما هي وكما كانت ، وامل الألماني حين يتساءل كما تساءل أدريان :

« لماذا يبدو لي كل شيء في هذا الكون مشوه الأوضاع ؟ »

لا يصور انقسـالاته فقط ، بل يصور نفسه كذلك ومعه المجتمع البشري بأسره .

(نيويورك) عمر هليس

سكرتير معهد الشؤون العربية الأمريكية